من الجزاء حتى يجتمع الترهيب إلى الترغيب ، ناسب ان يذّكر الله خلقه بدقيق محاسبته بعد أن ذكرهم بمظاهر رحمته حتى يتمثلوا دائماً أن رب العالمين الرحمن الرحيم هو مالك يوم الدين كذلك الذى سيحاسبهم ويدينهم بما يفعلون . والبر لا يبلى ، والذنب لا ينسى ، والديان لا يموت . اعمل ما شئت فكما تدين تدان . وهو أسلوب القرآن الكريم دائما كما قال تبارك وتعالى « نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العـــذاب الأليم » (سورة الحجر ٤٩ — ٥٠) .

(إياك نعبد وإياك نستعين)

تفسر العبادة لغة بأنها : الطاعة مع غاية الخضوع ، ولكن هذا التفسير اللغوى لا يؤدى المعنى المقصود بالعبادة بالضبط ، ولا يزال المرء يشعر أنه فى حاجة إلى تعريف أوفى وأدق وأشفى للنفس ، فقد يطيع الناس الرؤســـاء والكبراء طاعة تامة مع غاية الخضوع ولا يقال إنهم عبدوهم بذلك ، والعبادة غير العبودية ، ولا بد من تفريق بينهما يشعر بذلك الذوق السليم والطبع المستقيم . وقد ألمّ الأستاذ الشيخ محمد عبده فى تفسيره بهذا المعنى إلماماً جميلا وصور

معنى العبادة تصويراً بديعاً يطمئن به القلب فقال : « يغلو العاشق في تعظيم معشوقه والخضوع له غلواً كبيراً حتى يفنى هواه فى هواه ، وتذوب إرادته فى إرادته ، ومع ذلك لا يسمى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة ، ويبالغ كثير من الناس فى تعظيم الرؤساء والملوك والأمراء فترى من خضوعهم لهم وتحريهم مرضاتهم ما لا تراه من المتحنثين القانتين دع سائر العابدين ، ولم يكن العرب يسمون شيئاً من هذا الخضوع عبادة ، فما هى العبادة إذن ؟ . تدل الأساليب الصحيحة والاستعمال العربى الصراح على أن العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية ، ناشىء عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشأها ، واعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها ، وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق إدراكه . . للعبادة صور كثيرة فى كل دين من الأديان شرعت لتذكير الإنسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهى الأعلى الذى هو روح العبادة وسرها ، ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر فى تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه ، والأثر إنما يكون عن ذلك الروح والشعور الذى قلنا إنه منشأ التعظيم والخضوع ، فإذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى

لم تكن عبادة ، كما أن صورة الإنسان وتمثاله ليس إنسانا » . هذا قوله ملخصاً وهو كلام بديع كما ترى يجعل حقيقة العبادة مبعث التعظيم فى القلب لا صورتها التى تمثلها الجوارح .

والاستعانة طلب المعونة لإزالة العجز ، والمساعدة على إتمام مايعجز المستعين عن أدائه أو إتمامه بنفسه ، وهى فى الأمور العادية التى تدخل فى حيز قدرة الإنسان وتصرفه جائزة بين الناس ، بل هى من القربات التى يتقرب بها المرء إلى الله تبارك وتعالى : « والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » لأنها من الأسباب المشروعة المسنونة لإتمام الأعمال وأدائها ، ولكن الاستعانة فى الأمور الخاصة بالله تبارك وتعالى والتى لا يصح أن تطلب من أحد سواه ، وهى ما يجاوز حد القدرة البشرية ، كطلب الشفاء بعد استخدام الدواء ، وكطلب النصر على الأعداء بعد إعداد العدة وبذل المستطاع ، وكالاستعاذة بالله من الجوائح والآفات وصنوف البلاء — إلى غير ذلك مما هو فى يد الله وحده ، ولا يقدر عليه إلا مدبر الأمر فى الأرض وفى السماء .

العبادة والاستعانة بهذا المعنى لا تكونان إلا لله وبالله وحده

تبارك وتعالى ، ولهذا قدّم الضمير (إياك) ليدل على الاختصاص كما يقول أهل اللغة . وكل المظاهر التى تدل على العبادة شرعاً ، حسية أو معنوية ،لا يجوز أن تكون إلا لله كالصلاة والركوع والسجود ، والنذر ، والقربان والحلف والخوف والرجاء ، والتوكل والإنابة والمحبة ، والرغبة والرهبة والتأله والتذلل الخ — كما أن مظاهر الاستعانة التى اختصها الشرع بالله تبارك وتعالى لا يصح أن تصرف لغيره ، كالدعاء والاستغاثة ، واستمداد الحول والقوة ، وطلب قضاء الحاجات الخ — وبذلك يسلم للمؤمن دينه ، ويكمل إيمانه ويقينه ، ويسلم ، من لوثات الشرك الأكبر والأصغر ، ويجتمع له توحيد الألوهية والربوبية معاً ، والتوفيق بيد الله .

والآية من جوامع الكلم ؛ لأنها أشارت إلى خلاصة ما جاءت له الرسالات كلها ، وبعث به الرسل جميعاً ، من حقوق الله وجميل فضله على خلقه ، وليس الدين أكثر من (إياك نعبد وإياك نستعين) الأولى بداية المعرفة ، والثانية ثمرتها ، وبينهما منازل ودرجات لايقطعها إلا المقربون . ولقد ألّف الشيخ اسماعيل الهروى رسالة لطيفة أسماها « منازل السائرين من إياك نعبد وإياك نستعين » ألمّ فيها

ببعض ذلك وأشار إليه ، وشرحها ابن القيم فى سفر كبير أسماه « مدارج السالكين إلى منازل السائرين » وهو خير ما كتب فى علوم الأخلاق وأدب النفوس وتربيتها بأسلوب الصوفية من السلف الصالح رضوان الله عليهم .

ومن اللطائف اللفظية فى الآية الكريمة أن كلمة الاستعانة تشعر بوجوب العمل والأخذ فى الأسباب ، لأن الاستعانة هى طلب العون من الله على أداء عمل أو إتمامه .

فلابد للإنسان إذن من أن يأخذ بالأسباب ويجدّ فى الأعمال ، ثم يطلب المساعدة والمعونة من الله تبارك وتعالى ، ومن كلام عمر رضى الله عنه « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » وفى هذا تكريم للإنسان بجعل العمل المتصل به أساساً فى كل ما يحتاج إليه .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى قصر طلب الاستعانة على التوفيق فى العبادة ، استئناساً يقول رسول الله (ص) حين أخذ بيد معاذ رضى الله عنه وقال له « والله إنى لأحبك ، أوصيك يامعاذ لا تدعنّ دبر كل صلاة أن تقول اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن

عبادتك » — ولكن هذا التخصيص لا معنى له وإن كان أفضل الاستعانة ولا شك ما كان على الطاعة والخير وحسن عبادة الله .

(اهدنا الصراط المستقيم)

الصراط : الطريق ، والمستقيم المعتدل . والآية من جوامع الكلم كذلك ، فإن الإنسان فى حاجة إلى الهداية إلى الصراط المستقيم فى كل قول وعمل وفكرة وخاطرة ؛ لأنه فى كل ذلك بين إفراط وتفريط وكلاهما ضار ، والنافع المفيد دائماً هو الحد الوسط وهو الصراط المستقيم الذى نطلب الهداية إليه من الله تبارك وتعالى بهذه الآية ، وهو من الدين : ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه بغير زيادة عليه ولا انتقاص منه ولا انحراف عنه : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » (يوسف الآية ١٠٨) « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله » (الأنعام آية ١٥٣) « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور » (الشورى